حارس البستان

درامة في فصل واحد ذي ثلاثة مناظر

أشخاص الرواية

سيف الدولة	الشيخ حرقوش	ضريران مرتزقان
الفارابي	الشيخ صعتر	
الشيخ مجاهد صاحب البستان	قينة	

المنظر الأول

(بستان فاكهة في ضاحية المدينة حلب يعهد سيف الدولة في القرن العاشر الميلادي ، والوقت غروب ، والمشهد يبدأ بدخول ضريرين مرتزقين لاستيفاء الى البستان) .

الشيخ صعتر (ضرير مرتزق) — إحم . إحم . ما الذي تلوكه يا أستاذ ؟ ألم تعدني بإطلاعي مقدماً على مشروعاتك ؟

الشيخ حرقوش (ضرير مرتزق) — إحم . — هذا يا ولدي فستق ، لا يصلح لك !

صعتر — فستق . وهل نسيت أنه مكروه للمسنين مثلك ؟ ثم هل نسيت أننا اتفقنا أمام الشيخ مجاهد صاحب البستان على الصراحة والتعاون ! ألا تخاف على بقية أسنانك وأنت شيخ مسن ! ألا .

حرقوش (مغاظاً) — « مسنٌّ » أتكررها يا صعتر ولا تستحي وأنا ابن السبعين ؟

صعتر — (مغاظاً) السبعين ؟ ألم تقل أمس الثمانين ؟ من يدريني وأنا كفيف انك لم تتجاوز المائة ، ومع ذلك تستحل نهب الفستق ؟ هذا فجور يا حرقوش ؟ هذا.

حرقوش — (مغاظاً) فجور ! أكل الفستق وطيبات الله فجور !

صعتر — لا تؤاخذني فإني خائف عليك أكثر من خوفي على نصيبي . ألم تسمع عن كتاب (إيثار البندق على الفستق) لوليّ الله . لوليّ الله نسيت اسمه ! والمهم منه تحريم الفستق على الشيوخ لضرره البالغ بهضمهم .

حرقوش — سمعت عنه يا ولدي ، لأني أنا مؤلفه فقد أمليته في صباي .

صعتر — مؤلفه

حرقوش — نعم يا ولدي . هذه إحدى زلات الشباب كالنزل والنسيب ، لأني كنت وما زلت جدّ مولع بالفستق فخشيت منافسة الشيوخ حينئذ . أما الآن فأود إملاء كتاب آخر بعد تجاربي الطويلة التي أقنعتني بأن ضرره للهضم يصيب من دون السبعين من الفتيان والأطفال .

صعتر — وما هو حدّ الطفولة عندك ؟

حرقوش — إحم .. بالنسبة للفستق الى الخامسة والاربعين ، وبالنسبة للاجاص الى الاربعين ، وبالنسبة الى التوت . (يسمع لغط متصاعد خلفه)

صعتر (مقاطعاً) سه . فلسنا وحدنا . أتريد فضيحتنا من أجل فستق واجاص وتوت ؟ . ألا تستحي أيها المتصابي من عهد نوح ؟ .

حرقوش — متصاب ؟ نوح ؟ أجننت من أكل التفاح يا ولد ؟ . أجننت .

(تقترب الاصوات ووقع الاقدام)

صعتر — اخرس ، وهلمّ نتوار خلف هذه الشجيرات المتشابكة بعيدين عن الطريق (مغضباً صوته) حتى نسمع ولا نرى . فربما كان هناك نبأ يهمنا . اصمت يا حرقوش .

(يسمع المتكلمان المقتربان بجلاء)

الفارابي — أيرضيك هذا التفسير يا صاحبي ؟

مجاهد — اجل يا سيدي ، ولقد وجدت كتابك (آراء اهل المدينة الفاضلة) كله خيراً وبركة .

الفارابي — بارك الله فيك يا بني .

مجاهد — انيّ مدين لك يا معلم بتوجيهك تفكيري القاصر الى النظر في الله نفسه ، خلافاً لتكندي الذي كان يقصر انفاسنا على الاهتمام بآثار الله فحسب . وقد اطمأنّ قلبي إلى فوزك إنه لا شك في رجوع النفس الى الله ، وأن هناك أيضاً ترقيّاً في المراتب إذ أن النفوس الانسانية تترع إلى الفناء في العقل الذي فوقها ، وكذلك نفوس الافلاك بالاخرى حيثما تتقرب الى الله . وما أجمل تعليلك بأن النفس الانسانية إذا صعدت إلى

العالم العلوي رأت أن هذه الحياة هي عين الحياة الأخرى لأن الله في كل شيء وهو الكل في وحدته ! (أغمان و الاتحاد) أجل . قرت نفسي واطمأنت .

صقر - أسمعت يا حرقوش ؟ تب الى الله وارجع الى الحق ، ودعك من اغتيال نصيبي.

حرقوش — لا أعرف إذا كان يتكلمان بالتركية أم بالرومية . وهأنذا راجع الى ما أفهمه وحده . إني راجع الى القصر . تق

المنظر الثاني

(في قصر سيف الدولة بحلب ، حيث اجتمعت زمرة من الادباء وأهل الفضاء والموسيقى والشعراء والمفكرين يتقدمهم أبو نصر الفارابي ، والوقت أصيل في اليوم التالي للمنظر الاول)

سيف الدولة — ماذا أعددت للغناء يا قينة ؟

القينة - اعددت يا مولاي قول الشاعر:

يا جمرةً لم تزلْ مطيفةً في الغمامْ
مليوفةً الذيلْ سعيدةً في الاوامْ
السحب نارٌ لها ما خطبها ؟
لم أتبعْ خطوها ما حبها ؟
ما خنقها الباقي طول الحياة ؟
ما ورعها الباقي كل الشفاة ؟

سيف الدولة - لعل شاعرنا يرمز بهذا الى «النفس» . وهذا يشوقني الى محادثة أبي نصر .

الفارابي — هذا شرف لي يا مولاي .

سيف الدولة — أول صفة لله في نظر المتكلمين والطبيعيين هي أنه صانع حكيم ، فما هو الأساس عندك يا زعيم فلاسفة المنطق ؟

الفارابي — إن الله هو الموجود الواجب الوجود ؟ (أصوات استحسان من المجلس)

سيف الدولة — حسن. فاذا يدلك عليه، يمنعك أو تشكيك في العلة الأولى؟

الفارابي — إن العالم يا مولاي مظهر لانه حكيم عادل ، واحد في ذاته وصفاته ، مبدع ، بمعنى أنه علة لوجود الاشياء ، فهو يعطيها الوجود الأبدي ويدفع عنها العدم الأبدي ؟ أما تأثر الجزئيات بعد ذلك فهو ينشأ من فعل طبيعي ، يفعل بعضها في البعض

الآخر ، وذلك وفقاً لقوانين نعرفها من التجربة . وتأثير العلة الأولى في الكون إنما هو تأثير واتصال كلي عام لا جزئي ، من حيث ما يجب أن يكون عليه من نظام وما له من غاية ، هذا التأثير العام خير لا شر فيه ، لأن طبيعة المعقول الثلاثة الأولى خير لا شر فيها . فالموجودات صلة متدرجة متصلة يردها الخير المطلق ، واذا كان هناك من شيء نرده الى الجزئيات المتناهية المحددة المرى . (أصوات استحسان من المجلس)

سيف الدولة — هذا بديع يا أبا نصر ، فما رأيك في المعرفة الانسانية ؟

الفارابي — رأيي أن المعرفة الانسانية لا يحصلها الانسان باجتهاده ، بل هي تتجلى على الانسان في صورة هبة من العقل الفعّال الذي على ضوئه وضوء صوره المفارقة — لا على ضوء ادراك صور الأجسام بوساطة الحواس — يستطيع عقلنا إدراك الصور الكلية للأجسام السابقة على رؤية الأشياء المادية المحسوسة وادراكها ، ولهذا كان الاحساس معرفة عقلية ، وكل مادي محسوس ليس مرده الى القوة المتخيلة والوجود الحقيقي ، بل مردة الى العقل وما يصوّره .

سيف الدولة — بديع . بديع . فما رأيك في الوزارة يا أبا نصر ؟

(ضجة من المجلس « الوزارة »)

الفارابي — هذه يا مولاي لا يفهمها عقلي القاصر المحصور في التأملات الفلسفية والأدب والفنة والموسيقى وما اليها . إن الوزارة لجوهر نعجز يدي عن لمسه ، وذهني عن ادراكه ، واجلالي مولاي عن قبوله . فما أنا الا فكرة جائلة ، وخيال شرود ، وتأمل واثب ، ولحن ما له قرار . والوزارة هي نقيض كل هذه الخيالات والأوهام يا مولاي .

(ضجة عجب من المجلس)

سيف الدولة — سأدعك تفكر بضعة أيام يا أبا نصر . أما الآن فعودي أن تخص بالتكريم . لقد أسمعتنا قبلاً من موسيقاك المفرحة ما أطربنا أي اطراب فضحكنا وضحكنا ، وأسمعتنا من الموسيقى المدجية ما أبكانا ، فهل لك الآن في معجزة أخرى تفاجؤنا بها ؟

الفارابي — هذه أذن الرضى يا مولاي .

(تعزف موسيقى هادئة منومة ، فينام جميع من في المجلس ويسمع شخير أحدهم)

الفارابي — (ساخراً) هذا بلا ريب أحق الناس بالوزارة . والآن يمكنني أن أنقد أفلا ما يملكه انسان . يمكنني أن أفر بنفسي !

المنظر الثالث

(في بستان الشيخ عاهد خرج على حين كان الشيخ الأول منذ يومين. أما الوقت فغروب).

الشيخ صقر — يا سلام يا شيخ حرفوش ! إن عقلي طار أو كاد ! بينما كنت أصلي سمعت الشيخ مجاهد يحدّث ذلك الرجل العجيب الذي جاء للبستان منذ يومين ، ويسميه بكل إجلال « النار » أو « القارة » ؟

الشيخ حرفوش — « النار » ؟ « القارة » ؟

صقر — إي والله يا زميلي ! والأعجب أنهما كانا يتكلمان كلاماً سهلاً أعجب مما سمعناه معاً ، وكله أحاج وألغاز . وعلى الرغم من ذاكرتي الجبارة التي تحتدها فإنها لم تستطع أن تعي أكثر من جملة أو جملتين قال ذلك الرجل العجيب : « إن الأشياء تصدر عنه لكونه عالماً بذاته ، ولأنه هو مبدأ النظام الخير في الوجود على ما يجب أن يكون عليه . فإذن علمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه ، وليست قدرته وإرادته » .

حرفوش — يا شيخ صقر ! أحمد الله على حسن تفاهمنا بعد ما جرى منذ ليلتين ، فلا تفسده يا سامحني بهذه الطرطبلات ! اتفقنا على تقسيم الفاكهة واختصاصي بالفستق ، فما معنى السخرية في الآن وخلق نفور جديد ؟

صقر — « نفور » يا شيخ حرفوش ، وليس بيننا الآن إلا كل احترام ، ألم تقل إنك مؤلف كتاب (إيثار البندق على الفستق) .

حرفوش — وما شأن البندق والفستق بما قلته من الكلام السرياني ؟

صقر — « سرياني » يا شيخ حرفوش ، هذا كلام عربي فصيح حسبت أنك كمؤلف أديب تستطيع حلّ رموزه . وما دمت تحسبه سريانيًّا فاسمع العربي الأفصح . فإن الشيخ مجاهد قال بصراحة لهذا « النار » .

حرفوش — أي « نأر » يا شيخ صقر .

صقر — يظهر أنك يا شيخ حرفوش في غير وعيك ، كل هذا الوقت وأنا أحدثك عن « القارة » العجيب الذي يظهر أنه من خوارق الله سبحانه وتعالى والآن تسألني : أي نأر.

حرفوش — لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا ما كنت أخشاه . ألم أنصحك

بالتخفيف من أكل الاجاص ، ألم أقل لك إنه أنسب لي مثل الفستق تماماً .

صقر — أي أجاص وفستق يا شيخ حرفوش ، حلمك واستمع الى مصيبتنا الكبيرة .

حرفوش — أي مصيبة ، لقد فقدتك والله ، رحمة الله عليك يا صقر .

صقر — اسمع ولاتقاطعني ، فالشيخ مجاهد اشتكى الى هذا « الفأر » الكبير الذي يعظمه من الاغارة على محصول الفاكهة والتهم .

حرفوش (مقاطعاً) — يا خبر أسود ، اتهمنا .

صقر — نعم يا خبر أسود ، اتهم على ما أظن جماعات الفيران بالاغارة على محصول الفاكهة ، واستنتجت منه إنه قال له إنه يعتمد عليه كشيخ الفئران في رد غارتها وأنه ...

حرفوش (مقاطعا) — قلت لك إنك جننت ، فلا حول ولا . (يسع وضع أقدام مقترب)

صقر (مقاطعاً في صوت منخفض) — هلمّ تتوار . سنسمع بأذنك . لقد سأله الفأر عنا ، ولكن الشيخ مجاهد أنكر أن تكون لنا صلة بهذه الاغارة على فاكهة البستان . وشهد لنا بأننا من أولياء الله الصالحين ، وأنه يزوّدنا بالكفاية من جيد الطعام كما نشتهي ، وأننا لو كنا حتى من فصيلة الثيران أو من البغال والحمير لكان من المستحيل أن نبتلع كل هذه الفاكهة .

حرفوش (في صوت منخفض) — وهل سمعت يا مغفل أن فئراناً تغير على بستان كما أغرنا نحن ، سه ، ها ها مقتربان .

مجاهد — هذا لا يليق يا معلمي ، فقد حضر منذ ساعة رسل الأمير يبحثون عنك لأن امرك يهمه وهو يحبك ويجلك ويقدر مواهبك العالية اعظم تقدير ، ولا بدّ أنهم سيعودون الليلة او غداً ، لأنهم يفتشون عنك في كل مكان اعتدت ان تتردد عليه . فاذا يقال للناس ، ايقال لهم إن ابا نصر الفارابي فيلسوف زمنه وامام الموسيقى هرب من الوزارة طالباً ان يعمل فاطوراً في بستان كهذا .

الفارابي — هذا فضل كبير منك يا اخي لو سمحت به لاتفرغ لعبادة الله ، متأملاً في ذاته العلية ، كما يتأمل كل ناطور .

(لمحة موسيقية ملائمة في النهاية مشعرة بفرحة الطيبا)